معروفة ايضا بتجهيزاتها للعديد من الحكومات في العالم والعديد من الأفراد من أصحاب النفوذ بأجهزة المراقبة وحفظ الأمن، والتي شعارها الأساسي «الكتمان التام، السري»، كما قال لي نيك، وهو يتوجه لشخصين وقفا عند الزاوية الأخرى، لم أشاهدهما أثناء دخولي، وكما يدل شكلهما وطريقة تصرفهما وحديثهما، أنهما يابانيان، يتفحصان. لاستغرابي. قطع سكر سوداء تبعثرت على الطاولة، وقد توقفا عن ذلك عندما رأياني أتطلع إليهما، بينما سمرت أعينهم نظراتها بي، أمرّ حمل نيك على مخاطبتي قائلاً باعتذار «ألا تستطيع العودة بعد ربع ساعة؟»» بينما راحت عيناه تبحثان عن الياباني الأكبر سناً. الرجل الذي لم يبد طاعناً في السن، ابتسم لي، وكأنه يقول لي، ليس من الضير أن أبقى، بينما راح يتابع فحص قطع السكر. الآلات الباقية، وكل ما رأيته على الرفوف لم يثر انتباههما: فقط قطع السكر، وإلا فإن المحل يزدحم بكل ما يثير الهواجس عند الجواسيس المعاصرين.

لفت انتباه اليابانيين وجود كاميرا فيديو صغيرة الحجم، فبيّن نيك لهما مميزات هذه الكاميرا، فيما راح أحفاد «نيكون» يهزان رأسيهما. دار الحوار حول المكان الذي يجب تثبيت الكاميرا غير المرئية فيه ومدة مقاومة البطاريات. في النهاية تم الاتفاق، مد اليابانيان أيديهم تعبيراً عن الاتفاق.

«جواسيس خاصون من اليابان»، يهمس نيك، «لكنني لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك». على الطاولة كاميرا فيديو بحجم صغير (١٣٣ سنتمتر) إلى جانب محطة بث ومحطة استقبال. «من ٢٥٠٠ دولار إلى ما فوق ثمن أجهزة على هذا النمط. ذلك يتعلق بأي حجم يريده المرء»، يوضح نيك مبتسماً، ثم يمد يده للكاميرا ويشير إلى فتحة صغيرة حجمها مليمتر واحد، يمكن رؤيته عند

بكل شيء» يقول البريطاني، حفيد شارلوك هولمز وجيمس بوند، ضاحكاً.

مع مرور الوقت رحت أغرق تدريجياً في ذلك العالم الذي تركته أفلام جيمس بوند فيّ: العالم الذي تضرب فيه أنخاب أقداح المارتيني دون أن يعني أنها ستُشرب، العالم الذي تخرّ فيه أكثر النساء قوة أمامي، ما أن تسمع باسمي، شبيه بما كان يحدث في أحلام المراهقة، فقط عندما تقع نظرتهن عليّ. كان يُمكن أن اسرح بعيداً، لكن نيك، يُرجعني مثلما كان يفعل ضابط الكتيبة معي في المعسكر إلى الواقع، ويبدأ بالحديث معي أكثر حرية، عندما يعرف أنني صحافي.

أغلب زبائنه هم رجال تجارة، يريدون اكتشاف أسرار منافسيهم، «التجسس الاقتصادي في زمننا هو أكثر انتشاراً من التجسس العسكري»، يقول نيك. وما هي الطريقة التي يحمي بها المرء نفسه من المتنصتين له؟ جهاز Q لنيك هو حاضر لهذه المهمات. إنه يحضر تجهيزات جديدة يستطيع المرء عن طريقها اكتشاف التنصت ويستطيع وفق ذلك جعلها غير ممكنة بسرعة. هذه الأجهزة الخاصة بالكشف عن سماعات التنصت يُذكرنا بأجهزة التنصت الحديدية القديمة التي كان يستخدمها الجواسيس في أفلام الأسود وأبيض. من طرف آخر يستطيع المرء بواسطة جهاز آخر يُطلق عليه scrambler تقطيع التنصت إلى مقاطع متعددة يستطيع جمعها عن طريق كود معين. «الأمر يحدث بكل هذه البساطة»، يعلق نيك بانتصار وبفخر الخبير الأمني.

في الوقت الذي كان فيه جيمس بوند في زمانه، يربط السماعات ومختلف أجهزة التجسس بسهولة، فإن الأمر ليس بمثل هذه البساطة في بلدان أخرى، لأن هذا الفعل (التجسس) ظل محصوراً في نطاق صلاحية الدولة، هي وحدها

وسلم نيك مظروفا سميكا رماديا ليفتح بعدها حقيبته باتجاه نيك. ثم يأخذ ثلاثة باكيتات ويضعها بعناية في الحقيبة، يغلقها بسرعة ويختفي.

كانت تلك اللحظة التي كان عليّ استغلالها. إنها المهمة الأولى لي: غمزة عين من نيك، وهزة رأس مني، لكي أبدأ بملاحقة الرجل بالحقيبة المحملة بالأسرار. قلت لنفسي، ربما ستكون هناك قصة أحتاجها لعملي الصحافي. في أوكسفورد ستريت وقف هدفي أمام زجاج إحدى المحلات، أخرج تلفونه النقال وضرب الأرقام. هل اكتشفني عن طريق صورتي المعكوسة في زجاج المحل؟ بسرعة أخفي نفسي خلف كابينة للتلفون. بالتوازي مع ذلك راح الرجل حامل الحقيبة يُسرع، وأنا خلفه. فجأة ظهرت سيارة بي أم دبليو ووقفت، ليختفي الرجل في داخلها. مرة أخرى تعلمت درساً جديداً: لا تبدأ أبداً عملية مطاردة لوحدك. «أو لتكن هناك سماعة تنصت في حوزتك، واحدة على قاعدة نظام إرسال الساتلايت. حينها باستطاعتك أن تبقى وراء هدفك على مسافة خمسة كيلومترات . دون أن تُعرف في سيارة آمنة ومريحة. يمكنك مراقبة ضحيتك دائماً على المونيتور الصغير لراديو سيارتك»، يعلق نيك.

إن ما يحدث في عالم الجاسوسية اليوم، ومع كل التكنولوجيا المتطورة في زماننا الحاضر، لم يعد له علاقة بعالم جيمس بوند، الذي بالتأكيد سيندهش عندما يدخل محل Spy shop الواقع في أحد الشوارع الجانبية من أوكسفورد ستريت، في لندن! كم ضحكت في داخلي من رجل الأمن الذي أوقفني في زيارتي الأخيرة للعراق في محطة بنزين في أحد أحياء بغداد ما أن رآني أصور بكاميرا عادية، وعندما أطلق سراحي، قال لي، ألم ترَ القطعة المعلقة عند مدخل المحطة: «ممنوع التصوير»!

سوناتا الخواجا في روايتها «أمواج وجدران»

عن شتات الذات في الانتماء والمكان والوجدان

قصي الحسين(*)

تتوقف الكاتبة الطرابلسية سوناتا الخواجا في روايتها «أمواج وجدران»، أمام المرحلة التاريخية من انطلاق العمليات الفدائية في لبنان في العام ٦٧ بعد النكسة وحتى مرحلة الثمانينات وتحول لبنان إلى الحرب الأهلية «كدعسة ناقصة» لم يكن مستعداً لها، كما لم يكن مخططاً لها، لا من قبل الأطراف اللبنانيين ولا من قبل الثورة الفلسطينية. ولذلك نرى الكاتبة ترصد العلاقة التي طرأت على اللبنانيين والفلسطينيين ونظرة كل من هذين الطرفين إلى الطرف الآخر بكثير من الواقعية، من دون أن تنزلق إلى إجراء عمليات تجميلية للعلاقات الأخوية بين الشعبين اللبناني والفلسطيني، والتي وصلت إلى مأزومية شعبية غرقت فيها العائلات من اللاجئين وأهل الملتجأ على حد سواء.

حملت الكاتبة الشخصية المركزية عبء هذا الملمح عبر تسلسلات حوارية في مواقف متشابكة، وهذا ما منح روايتها حيوية موصولة، حتى باتت وكأنها تتحدث عن نفسها في تجربة طبعت حياتها وحياة وطنها لأكثر من ربع قرن. كما منحت روايتها تكاملاً في التفكير والإبداع والطبيعانية، وتجاوباً رؤيوياً خلّاقاً في التوظيف الجمالي بآلياته البسيطة السوقية حيناً والشعبية حيناً آخر، كما بدا عملها الروائي عليه، مما أسهم في الكشف عن طبيعة المتغير المادي في العلاقات الوطنية والقومية والمجتمعية والأسرية والنضالية، ومردود كل ذلك على الذات الإنسانية الشديدة الالتصاق بتاريخها وبثقافتها على حدّ سواء.

لعبت سوناتا الخواجا على شتات الذات بين عالمين، عالم الملجأ وهو لبنان وعالم اللاجئ وهو الفلسطيني الوافد إليه منكسر الخاطر، مطروداً بآلة الإسرائيلي الوحشية إلى غربة قسرية وجدت نفسها تستنقع في لبنان، بدل أن تستأنف فيه تجربة تعيد إلى الشخصية الفلسطينية جوهرها المطمور بغبارها وركامياتها. كذلك لعبت سوناتا على شتات الذات في الوجدان والانتماء والمكان، لدى شخصيتها اللبنانية الطرابلسية التي تكشف من خلال سردياتها لحياتها الخاصة في الأسرة والمدينة والوطن عما قرّ في داخلها من قيم وأفكار ومشاعر، ترى أنها تحتاج إلى تعديل أو تطهير وصولاً إلى السلام الداخلي والسواء الذاتي وسلامة التوجه في ما بعد.

ومضت الكاتبة بكل جرأة، وراء هدفها هذا، مؤكدة الولوج إلى قعر الواقع المؤلم في سعي حثيث إلى اكتشاف الجوهر المطمور وصياغته في تجانس عضوي بين الرؤية والأداة. وكانت في نموها الجسدي والنفسي المتفاعل مع الأحداث والوقائع المتوالية تحاول أن تقدم رسماً شخصياً لنفسها أولاً بأول، لتعود وتقدم صوراً متضادة لأشخاص الأسرة الواحدة والمجتمع الواحد الذي ضربه اللجوء وتغلغل فيه وهزّ التقاليد والعادات المتوارثة هزاً عنيفاً.

وطغت صور الحياة والممارسات الجنسية على فصول الرواية طغياناً أعمى، فكانت تبدو متردية يشيأ فيها الإنسان وتختلف فيها مواقف الأشخاص. فالذكورة العمياء والأنوثة البكماء، تصطدمان، قدر الأولى أن تبسط سيطرتها بعنف، وقدر الثانية أن تنصاع باستسلام كلي. وقد يقول واحد إن هذا شأن خاص لا علاقة لأحد به. وقد يذهب آخرون إلى أن هذا وضع مناف للكرامة الإنسانية وللأخلاق، أو لأخلاق مجتمع«نا» ودين«نا»، ليقولوا بعد ذلك، بضرورة منع هذه الممارسات ولو بقوة القانون. غير أن الكآبة تلقي على موضوع الممارسة الجنسية في نصها، نظرة معقدة ومختلفة. وربما كانت تحاول أن تمكن القارئ من مقاربة الموضوع، من زاوية أكثر واقعية وإنسانية، وأقل ميوعة وتحجراً:

«من انتهك حرمة بنات الناس، يكلّف بالمحافظة على حريم بيتنا، أصريت على خروجهم وأصر الجميع على بقائهم. وذلك أن أحلافاً كانت تعقد تحت الطاولات وفوقها، وراء الجدران وعلى السلالم وفي بيوت الجيران. فالفاجرة التي غادرت منزل ذويها مع رجل لا تربطها به صلة غير الرغبة الجنسية، أصبح وجودها ضرورياً من أجل حماية بنات يتميزن عنها أنهن ما زلن بنات» (ص ٩٧).

في مراحلها المتنامية في الرواية بدت الكاتبة التي تشي أنها تكتب قصة نفسها بنفسها، وكأنها تحاول مدفوعة بعزم وإرادة، أن تكون ذاتها، أن تحقق إمكانياتها، وطاقاتها وفرادتها، وألا تفقد قدرتها على أن تنمو بشكل سوي وصحي وسليم. وقد اكتشفت أن أي علاقة متزنة مع الآخرين (الذكوريين والأنثويين)، غير ممكنة بدون بناء ذات صلبة متحققة. ولأن تحقيق الذات يفترض بالضرورة التمايز عن الآخرين تحقيقاً للفرادة الشخصية، فهم بالتالي يتجنبون أي علاقة (خضوع / تسلط)، ولهذا فإن مسعى الكاتبة هذا في تحقيق الفرادة، كان يستدعي بدوره مسعى تحقيق الحرية. ولعل ما يتناقله المجتمع بقلم الكاتبة من أخبار حول تصرفات جنسية لا تتوافق مع تقاليد الأسرة المحافظة والمدينة المحافظة، إنما شكّل بالنسبة لها صدمة الوعي بالذات التي كانت تغالب أشطان بئر مهجورة استيقظت فجأة على جموع النازحين من غرباء وبلديين.

وبرأينا، إن ما كان ينقص الكاتبة استدراكه وهي تعالج مسألة تصادم الذكورة والأنوثة، أن التهتك والاستهتار الجنسي اللذين تشي بهما الرواية، إنما يسيران كلاهما في الخط الذي يسير فيه المجتمع اللبناني والمجتمع الفلسطيني المتلبنن حالياً، والقائم على عبادة المال وتهميش العاطفة والفكر والحب، وهو الخط الذي يشيء الإنسان ويتفهه. إنه بحق خط هدر الإنسان لذاته وهدر القضية الفلسطينية أيضاً.

قدمت الكاتبة نفسها كما أزعم، شخصية مركزية تتعامل مع الشخصيات الأخرى، رضاً أو نفوراً، داخل زمان الغربة ومكانها، وتوقفت في دأب ونمنمة أمام عبورها إلى عالم جديد، واستدعت الحنين إلى مراتع الصبا، الحنين الذي يشفّ لدى الكاتبة عن توقها المتجدد والحار للخلاص والنجاة من عالمها الجديد الذي وجدت نفسها فيه فجأة بعد غياب الأم والأب، بكل قسوته القاتلة. كذلك حاولت الكاتبة كشف فضاء عالمها الذي تضجّ فيه شخصيات مهاجرة من داخل لبنان (القرى والمدن) ومن خارجه (فلسطين) وما كان يحدث فيه من التعصب والتضييق والتعنيف والقهر، فالاندحار داخل كهف الذات لجوءاً إليه كملاذ أخير من جحيم الواقع. إذ الكاتبة كانت حريصة على تحقيق الصدق الواقعي برسم شخصيتها، عبر ملامحها وسلوكها، ولوازمها ولغتها الخاصة (السوقية أحياناً كثيرة) من أجل منح النص براءة صدق واقعيته.

إن ولع الكاتبة بالنمنمات الصغيرة، إنما هو ملمح فني رئيسي في روايتها، استغنت به من أجل التساؤل الدائم عبر الأحداث والوقائع التي أرخت لها وعبر الشخصيات اللبنانية والفلسطينية التي رسمتها في إطار من التكوين القسري لأسرة هجينة ومتآخية معاً في آن. أما تساؤلها هذا فما كان يبرح ساحة شتات الذات في الانتماء والمكان والوجدان، خصوصاً في ملامح أخرى عديدة، استخدمتها الكاتبة بغرض هيمنتها على المفردات التي تصنع مشهداً حسياً جنسياً ربما، وسياسياً ربما أيضاً، غير أنها في مطلق الأحوال تكشف حالة ممجوجة أو مقبولة سائرة أم مستترة، يتوارى فيها عري الواقع المتجسد في العلاقات الأخوية والأسرية والمدينية والريفية والوطنية والقومية على حدّ سواء.

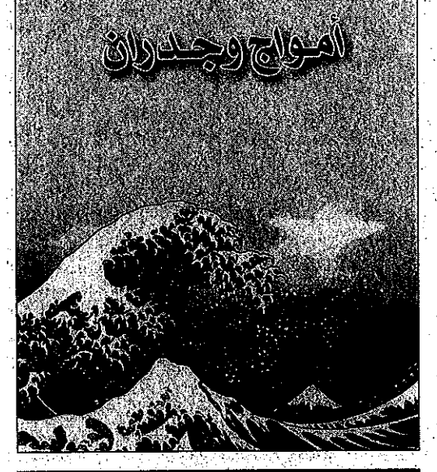

● أستاذ في الجامعة اللبنانية

● سوناتا الخواجا
● أمواج وجدران
● دار بيسان
● بيروت ٢٠١١ (٤٧٠ ص)

دعم الفنون وآليات السوق الإعلامية

علي جازو

مرافقاً نهمَ الابتذال حيث يلطخ الاستعجالُ عالمَ الصور، واستمرار بثّها طوال النهار والليل. ومع استسهال العمل في مجال فنّيّ «التصوير» و«التمثيل»، غدا استعمالُ الكلمات سهلاً بدوره. وتضفي السهولة الحاصلة، وحاجة الأقنية لملء ساعات البث المتواصل، وتلقف صالات العرض لوحات هي أقرب إلى ديكورات زينة، نوعاً من المرونة غير الحذرة، لكن آثارها على كفاءات النقد الفني ومهنية العمل الصحافي مخيبة. الكلمات التي لما تزل خير البشرية، حولها تدفق الصور إلى نقمة. وليس هذا مبعث طمأنينة، فهي لم تلبّ طموح خوض تجارب فنية جديدة، وتفتح نوافذ خيال مغلقة، أو متناهبة بين فكّي جزر الأصالة ومد التحديث السقيمين. إن بحثاً في أسباب السيولة التصويرية الجائرة، وافتضاح استسهال الكتابة عن الفنون، لهو من قبيل الأمر الضروري لقياس مستوى الذائقة العامة وتلمس أسباب تراجعها المفزع. تبهجنا جاذبية الخفة ويسر النعومة وسخونة المنازعات المفبركة. فالناس، حسب مزاج إعلام غوي يساوي بين التسلية الرفيعة وضحالة الفكر، يريدون قضاء الوقت للمتعة على أي وجه، وهذا بدوره حاصل عهد استهلاكي شنيع نجح في توحيد الأنماط حاضرة المتلقي في اهتمام جاهز بلا تأثير لاحق. لم يعد الشغف دافعاً إلى العمل قدر ما أضحت التسلية عنواناً جامعاً. ويقتضي مزاج كهذا تسرعاً في الإنجاز وسرعة في النشر، واهتبالاً في جني المنفعة، على ما يؤيدها ويسندها، مخففاً مراراتها، وحاجباً تهافتها من مصانعة في التعامل، وإهمال تجميلي في القراءة وضعة شنيعة في المتابعة. ولا يمكن للدعاية التجارية شفافة وغير شفافة، مثالين مزدوجين محزنين بين محجبات طليقات اللسان جذابات وسافرات هاذرات مثيرات، ولا دواعي التسويق المربحة، أن تسهم بأي نوع من رصانة العمل، ناهيك عن دفع الناشئة بقوة إبداع ملهمة. إن تكاثر المحطات الفضائية، سمعية وبصرية، وطرق ترويج أنظمة الاتصال - ذات الجوهر النفعي - تكثر تعويم المعلومات وتدفق الصور، ولا يختلف عنها حالاً سيئة ومجدبة ومريبة، تنظيمنا الفاشل لقاءات فكرية، ولا الإشراف على لجان تحكيم «الجوائز الثقافية» التي تسيل لها الألسنة. وإذا كانت رغبة الشهرة وجمع المال دافع العمل غذت الميول التجارية نوازعه، فحرية إنشاء المواقع وجمع المعلومات والحوارات، وبترها وقصها عن سياقها وعوامل نشوئها وتوزيعها وتدوينها، بلا ضوابط، وتحول شخص عادي، وفاقد لتأهيل ضروري، إلى صحافي وربما خبير بات مألوفاً. ويؤدي غياب المعايير السليمة - خصوصاً في الدول المتأخرة في نموها الاجتماعي والثقافي وندرة كفاءاتها المتخصصة - إلى غياب أبحاث جادة وأسئلة حقيقية.

ويتناول الكتبة الصغار والمدونون الجهلة كل شيء في بلدانهم، ويعود السبب الغالب في هكذا عمل بلا مسؤولية ولا حرص، إلى دوام القمع السياسي وما يخلفه من جمود وتعثر، وحرمان حرية التعبير، وانتشار الأفكار الخرافية بموازاة الاعتناء بجمال الجسم (من قبيل: شعوذات بناء البدن السليم وسلوك نصائح الطب النباتي، وكيفية التنحيف مع الحفاظ على امتلاء الوركين، وملء الشفاه انتفاخاً، وتعريض الثدي مرفوعاً بثبات حصين خلف غلالة ساتان هفيف، والاستعانات الإسعافية بتأملات بوذية على نمط هوليوودي مشوه، وبث صور العنف ومشاهد الإثارة العفنة..) مجانية وسهلة الانبعاث. ليس القمع فقط منشئ زيف معرفي، ولا تلبي الدعاية الرخيصة مطالب التغيير حقيقة، وما كانت فنون الإثارة، طالما كانت وحدها موضع انشغال الجشع، مكان بناء للوعي والضمير.

كل ذلك يدفع أجيالاً ناشئة نحو تراجع ثقافي خطير، ويرافق ذلك غياب الحافز المادي وارتفاع مستويات الفقر والبطالة والتهميش. ونادراً ما يكون للقضاء دور في الحد من تصرفات تصل حد الجريمة المعنوية والضرر النفسي؛ فالإسفاف والتهجم والسب والتشهير والتلفيق مظاهر ترى في أكثر من مكان. ويمكن للجهد الثقافي العميق أن يستمر بعيداً عن الانحطاط إذا اعتمد مستوى متواضعاً من أفانين الرقميات الحديثة، ذلك أن أفضل الإبداعات ظهرت عبر مستوى متواضع بل بدائي قياساً إلى فورة الحاضر المخيفة. فكاوباتا ظل يكتب وركبتاه على الأرض، وكافكا لخّص الرعب في ليلة واحدة، وبازوليني بدأ جاهلاً تقريباً مزايا الآلة بين يديه، ومحمد عبد الكريم أخذ إمارة البزق عن فقر لا غنى يضاهيه، وفاتح المدرس عمل داخل قبو معتم، ويلماز غوناي أتحف السينما وهو سجين.

رغم وجود تنوع وتجدد كبيرين في الإنتاج الثقافي وفي نظم انتاج وتبادل المعلومات، إلا أن الواقع الافتراضي لها يقلل من موثوقيتها؛ لكننا في الوقت نفسه مضطرون لاستخدام أساليب خارج حدود التداول الثقافي القديمة. على أن حصيلة أساسية لا ينبغي نسيانها، وهي أن هناك اتفاقاً عاماً، وليس ذلك عن تواطؤ ولا عن مبالغة تخويفية، على ترافق كثرة المعلومات بضحالة قيمتها الاستعمالية؛ فالفيسبوك الطاغية لم يفك العزلة قدر ما وسّع القلق وأرخى الهمم، وسوء نصاب الرواتب بلا حل. ومناطحات البرامج الحوارية غذت الضجر كله. وما لم يعلن الناشئة ضيقهم بكل ذلك علناً، فلسوف تبتلعهم أصقاع العزلة ويفتك بهم الضجر ويسقمهم انعدام الغاية ومتاهات الطرق العجولة، فيغفلون عن رغبات الطموح بعالم أقل قسوة وأخف وطأة على المشاعر وأدعى إلى اللطف والمودة. إن شدة الاختلاف الحضاري وتباين مستوى الفهم والوعي، لا ينبغي أن يفضيا إلى قسر العالم إلى نوع من توحيد أشكال الحكم وأنماط الثقافة والتربية. ثمة إرث ضخم من الحبس والكسل والخوف والإهمال والكراهية، وما يمكن أن يبدل عادات وأنماط تفكير نتجت وترسخت في هكذا ظروف، لا يحدث بين ليلة وضحاها.

ليس للحقيقة قومية بعينها، ولا للعدالة أكثر من وجه، وما يأتي عن طريق الدعاية وحدها يمضي معها. ذلك أن فقدان الرغبة الحقيقية يعادل فقدان قيمة العمل نفسه، فالتحسن المادي المطلوب لوحده ليس بذي معنى ما لم يكن متوازياً مع بعد أخلاقي حارس ومراقبة جدية. دوافع العمل المزيفة تسم نتائجه بهكذا سمة محبطة. ذلك أن المناسباتي، موقتاً وطارئاً، كحال المهرجانات والاحتفالات الضخمة، لا يخدم أي مطلب يفعل الحال العامة وينشلها من الركود والعسر المزمنين، خصوصاً في بلد كسوريا ثلثا مواطنيه بأعمار الفتية والشباب، مدارسه أقفاص إفلاس تربوي، وجامعاته تتهاوى، وفضائح الفساد تنخر مؤسساته العدلية والصحية، وأمنه الزراعي الاقتصادي مضطرب، وضراوة الفقر تكاد تأتي على نصف سكانه. في هذا دليل مؤسف على عدم انسجام وسموّ الطموح المفترض دعم الفنون و«تهذيب» الأذواق على هديه.

على خطى جيمس بوند، في لندن

نجم والي

كان عليّ أن أفكر من جديد في عالم العميل السري رقم ٠٠٧، جيمس بوند، أو لنقل: كان عليّ بالأحرى أن أفكر به هو، جيمس بوند، كم سيندهش عندما سيعيش التجربة التي عشتها. في لندن، وفي يوم قائظ، وجدتني أدخل صدفة أحد المحلات، الذي بدا من الخارج متجراً عادياً مثل باقي المتاجر. ربما هو الفضول فقط الذي قادني إلى دخول المحل، أو القطعة التي بالتأكيد لم تلفت نظري أنا فقط بالاسم الذي خُط عليها: ««SPY SHOP»، من يستطيع تخيل ذلك: «محل للتجسس»!، ولشخص مثلي عاش نصف عمره في بلد، مجرد سماع كلمة «تجسس» فيه تقود البشر للإعدام، ناهيك عن عدد الأشخاص الذين أعدموا بتلك التهمة وهم أبرياء! ولأنني هنا، في لندن، أو في أوروبا، طوال السنوات التي عشتها فيها، لم أشعر بنفسي مهدداً بتلك العقوبة الحقيرة، عقوبة الإعدام، قررت دخول المحل.

محل عجيب، حتى الجرس الذي دق معلناً دخولي، يحمل نبرة خاصة، له علاقة أكثر بأصوات الأجراس تلك التي سمعتها في أفلام التجسس. لم تنقض ثوان قليلة حتى رأيت سيداً أنيقاً ببدلة سوداء مخططة، يخرج من إحدى زوايا المحل، يستقبلني ويقدم نفسه لي بكياسة انكليزية: «نيك بيتال». لم يحتج جهتها الأمامية. ثم يشير البريطاني إلى مونيتور في نهاية المحل ويبدأ بتدوير الكاميرا، مرة بهذا الاتجاه، ومرة بالاتجاه الآخر. على الشاشة تظهر الرفوف، أحذية نيك السوداء، الطاولة القهوائية وحافتها. نوعية الصورة رائعة، «صغيرة بصورة تفوق الخيال»، يقول نيك وفي صوته نبرة فخر، مثل صياد أمام غنيمته. «لكن اليابانيين اشتريا تواً نسخة أصغر من قطعة يوروا هذه التي تراها هنا، هي نسخة مكبرة».

نيك يستمر في عرضه محاولاً إغرائي بالشراء: بطاقة كرديت، ثم حاسبة جيب الكترونية، حقيبة ديبلوماسية، بليك، موصل كهرباء، والعديد من الأشياء الأخرى، التي كان من الصعب عليّ تميزها، ناهيك عن العثور على اسم مرادف لها بالعربية: «في الحقيقة، إن كل هذه الأشياء هي محطات راديو مستترة، والتي تستقبل أي صوت في أي مكان، وتنقله إلى شخص يستقبلها»، يكشف نيك بسحنته الجدية سر هواية الجمع التكنيكية. «باستثناء بطاقة الكرديت، فإن كل الأدوات الأخرى يمكن استعمالها كما يعلن عنه مظهرها الخارجي. بقلم الحبر تستطيع الكتابة، بآلة حساب الجيب بإمكانك القيام بعمليات حسابية». يضع نيك بطاقة الكرديت ويخفيها في كتاب للملاحظات ثم يطويه. يسلمني أريل راديو صغيرا، بإمكاني وضعه في جيبي، بالإضافة إلى جهاز تنصت صغير بكبر حبة الفاصوليا أضعه في أذني، ويشير لي بسرعة: السترة وبسرعة خارج المحل!

عشرون خطوة، وكان عندي الاستقبال. كما لو أن جهاز Q لنيك إلى جانبي، يهمس همساته في أذني. حتى عندما ينادي بهدوء في أذني، أستطيع أن اسمعه بوضوح. لبرهة أعود للمحل، فيوضح لي نيك، بأن جهاز الاستقبال هذا يستطيع الوصول إلى مسافة تبلغ ٣٠٠ متر. بالإضافة إلى ذلك يقول لي نيك بأن من الممكن أن نربط بالجهاز جهاز تسجيل. «لكي لا يظل أحد ما إلى جانب التنصت»، يعترف لي بنظرة فيها الكثير من الجاسوسية، النظرة ذاتها التي كان جيمس بوند يمنحها لأعدائه لكي يفهموه في نهايات أفلامه، بأن الجمال يغنيه أكثر، أكثر من التبعات الشريرة للمغامرة. الجيد في التقنية: إنها تقفز بالذات في اللحظة التي يتكلم بها الذي يهمس كلمته الأولى. بصورة أفضل حتى: أن الـ Q الذي أملكه يستطيع حتى برمجة صوت المستمع. كل المحادثات الباقية تجعل القوقعة باردة بصورة كاملة.

ينظف نيك الطاولة ومثل ساحر تظهر بين يديه بصورة مفاجئة سماعات صغيرة «قواقع» مهمتها التنصت. ثم يأخذ نيك شيئاً بحجم قطعة السكر ويثبته بكماشات صغيرة جداً في خط التلفون. يغادر المكان، فأتبعه، متلهفاً لمعرفة ما سيحدث. في الغرفة الجانبية تشتعل في آلة صغيرة، بحجم الواكمان، أخضر وأصفر. هكذا، في حالة رفع أحدهم سماعة التلفون الذي نريد

التي لها الحق بالتجسس على مواطنيها، ووصل الأمر بدولة مثل لبنان أن تتجسس على تلفون رئيس حكومتها! وإذا كان استخدام هذه الأجهزة في دول عديدة يقود للإعدام، فإن استعمالها في بلد متقدم مثل المانيا الغربية ليس بأمر سهل إن لم يكن غير مسموح به. صحيح أن المخالفين للقانون لا يخضعون لحكم الإعدام، إلا أن المخالفة ستكلف صاحبها مبلغاً غير ضئيل، فعلى المرء الحصول على ترخيص باستخدام تلك الأجهزة قبل استخدامها؛ وبشكل عام يُسمح للألمان بربط جهاز تسجيل بالتلفون، لتسجيل المحادثة، على شرط أن يكون صاحب التلفون طرفاً فيها. في المقابل يُمنع عنهم سحب مكالمات الجيران وتسجيلها. أيضاً سيخالف الشخص القانون في حالة وضعه سماعة في مطبخ أو غرفة الضيوف. وفي هذه الحالة بالذات يخالف المرء العديد من الفقرات القانونية المتعلقة بحماية الحياة الشخصية وأسرارها.

لكن ماذا تعني مخالفة القانون إذا كان جيمس بوند يبحث عن خليفة له؟. ماذا لو أضع جهاز الـQ إلى جانبي، لكي أتحضر لمهمتي الجاسوسية القادمة؟ لكن ما أن أصل للدفع حتى يرعبني ثمن الجهاز، فما أكسبه وعلى مدى شهور عديدة لا يكفي لشراء الجهاز ٠٠٨، على عكس الرجل الأميركي الذي وقف في تلك اللحظة إلى جانبي، والذي سيشتري سماعتين للتنصت وجهاز scrambler. كان بإمكانه شراء سيارة ليموزين بالمبلغ الذي دفعه.